مجلة المعيار ISSN :2588-2384
مجلد: 23 عدد: 45 السنة: 2019

المُفردة القرآنية في التفسير البياني للقرآن الكريم
عند عائشَة بنتِ الشَّاطِئ

د/اليزيد بلعمش
جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة-الجزائر.
el-yazid@hotmail.com
مخبر الدراسات القرآنية والسنة النبوية

تاريخ الوصول: **2017/05/18** القبول:2019/01/02. / النشر على الخط:2019/01/05
Received :……l Accepted :……l Published online :……

الملخص: يهدف هذا المقال إلى بيان منزلة المفردة القرآنية عند بنت الشاطئ في تفسيرها البياني للقرآن الكريم، وذلك من خلال عرض منهجها وتبيُّن آثار المفردة في صناعة وصياغة هذا النوع من التفسير عندها، وقد خلص البحث إلى أن تفسيرها البياني كان مرتكزا في مجمله على بيان الوجه البلاغي للمفردة القرآنية من جهة مدلولها الذي أدته في السياق، ولا يخرج تفسيرها البياني عن هذا إلا قليلا، أو إلا بالقدر الذي يخدم بيان دلالة المفردة، من الإشارة إلى ما حول النص أو إلى بعض ظواهر الإعرابية والتركيبية.

الكلمات المفتاحية: المفردة القرآنية- التفسير البياني- بنت الشاطيء

The Qur'anic vocabulary in Explanation of the Holy Quran by Aisha Bint Al Shati

* **Abstract:** The purpose of this article is to present the grades of the Quranic vocabulary of (**Bint Al Shati**) in her diagrammatic explanation of the Holy Quran, by showing her ways and discerning the effects of the vocabulary in making and forming this kind of this explanation .

This research found out that the diagrammatic explanation of (Bint Achatie) was based in its total on the exposition of the rhetoric side of the Quranic vocabulary, on the hand of its meaning in the context context, and the explanation is almost the same as hers, or only by a degree that serves the vocabulary`s indication, from what is the text about to the structural and accidenceal phenomenon's .

Keywords: Quranic vocabulary - Explanation - Bint Al Shati

1 - تمهيد:

كان للقرآن الكريم عند المسلمين مكانة عظمى وكبيرة جدا، فلم يحظ كتاب من كتب الدنيا عند أي أمة من الأمم بمثل ما حظي به القرآن الكريم من الحفاوة والاهتمام، فعكفوا على تلاوته ودراسته، وقراءته وتعلمه، وتوضحه وتفسيره.

فكثرت -لذلك- تفاسيره والكتب المؤلفة حوله كثرةً تند عن الإحصاء، وحُق له ذلك. وكثرت معها وجوه تناوله، وتدبره وتأمله، وقد نحا المسلمون في ذلك مناهجَ عدة، وأساليب متنوعة، لعل من أبرز هذه المناهج منهج عُنِي بالنظر إلى القرآن الكريم نظرةً بلاغية وبيانية، عرف: بالمنهج أو الاتجاه البياني؛ وبعضهم يسميه: بالتّفسير البياني.

لا غرو أنْ يظهر مثل هذا اللّون من التفسير، وقد عجز العرب، وهم من هم في الفصاحة والبلاغة والبيان عن معارضته رغم التحدّي المتكرّر لهم، ورغم ما تميّزوا به من قوة العارضة والاتساع في فنون القول. فولَّد هذا العجز عندهم "إحساسا فطريا بتفرد البيان القرآني وتميزه عن صور البيان التي ألفوا، وقد اجتمع على هذا الإحساس مؤمنهم وكافرهم، فقد كان الكفار يطعنون ما وسعهم الطعن في مصدر الوحي، وفي أمانة ناقله وفي كفاءته، وبالغوا في ذلك ... لكنهم لم يجرؤوا أبدا على الطعن في بلاغة القرآن وبيانه، ... فقد كانت آياته تسحرهم ... وتجذبهم للإيمان ... ويتسللون لسماع آياته بالليل ثم يتلاومون على فعلتهم بالنهار"[1]، لقد كان لهذا الإحساس أثره من جهة محاولة البحث عن تلك الخصائص البلاغية والبيانية التي امتاز بها، وصارت البلاغة شرطا بالغ الأهميّة في النظر إلى كتاب الله جلَّ وعلا، بل وانفردت بالنظر حتى كان عندنا لونا خاصا من التّفسير عرف بالتّفسير البياني.

[1])عبد الجليل هنوش، **البلاغة والتفسير مقدمة منهجية** (ص17)، مقال منشور ضمن: كتاب"**بلاغة النص القرآني**" بحوث الندوة التي نظمها مركز الدراسات القرآنية بالرابطة المحمدية للعلماء بالمحمدية بالمغرب، ط1، 1435هـ.

وإذا ما تخطينا المسيرة التّاريخيّة التي نشأ بها هذا اللون من التفسير، والمراحل التي مر بها، فإنه تستوقفنا في العصر الحديث العديدُ من المحاولات البارزة؛ التي نهجت في تناول القرآن الكريم هذا التّناول، كان من أبرزها ما كتبته **عائشة عبد الرحمن الملقبة ببنت الشاطئ** (1912-1998م)، فقد كان لدراستها الأثر البين، والوقع البارز في هذا المجال، ويظهر ذلك من خلال تأثر الدّراسات التّي جاءت بعدها بها.

ونحاول فيما يلي أن نسجل أهم الخصائص والتّميزات التي امتازت بها هذه الدراسة من جهة بيان منهجها في ذلك، والجوانب التي كانت موضع اهتمام عندها، وأولتها عناية بالتّحليل والتّوضيح لترسم – على ما كانت تصرح به– منهجا جديدا في تفسير القرآن الكريم.

2-منهج التّفسير البياني عند عائشة بنت الشاطئ:

أ– التّعريف بدراسة عائشة بنت الشاطئ: قدمت عائشة عبد الرحمن الملقبة ببنت الشاطئ(1912-1998م) في إطار الدّراسة القرآنيّة عددا من الكتب، حاولت بها خدمة مجال الدِّراسات القرآنية، من مثل: القرآن والتَّفسير العصري(1971م)، القرآن وقضايا الإنسان(1972م) ... وغيرها، لكن مما كان له الأثر الكبير والبيِّن في السَّاحة البيانيَّة والبلاغيّة وصارت تعرف به، كتابها: التَّفسير البياني للقرآن الكريم (1962م)، ويتبعه في ذلك: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق(1971م)، والأول يعود له الفضل الكبير في انتشار هذا اللّون من التّفسير، حتى عدَّها بعضهم مؤسسة له بسبب هذا الكتاب، لكنّها في الحقيقة هي مسبوقة في ذلك بجهود معتبرة كالجهد الذي قدمه عبد الله دراز في كتابه «النبأ العظيم»(1933م)، والجهد العظيم الذي قدمه عبد الخالق عضيمة في كتابه «دراسات لأسلوب القرآن الكريم»(تم إكماله في1981م).

يتألف الكتاب:(التفسير البياني للقرآن الكريم) لعائشة بنت الشاطئ من جزئين، تناولت فيه تفسيرا بيانيا لمجموعة من سور القرآن الكريم من المفصل القصير غالبا، وقد أشارت إلى ذلك بقولها: "وأتجه بمحاولتي اليوم إلى تطبيق المنهج في تفسير بعض سور قصار، ملحوظ فيها وحدة الموضوع، وأكثرها من

السور المكية حيث العناية بالأصول الكبرى للدّعوة الإسلاميّة"[1]، وكما أشارت في هذا النّص إلى نوع السّور الكريمة التي كانت موضع دراسة، أشارت أيضا إلى العلة من أجلها اختارت هذه السّور دون غيرها، وتمثلت في أمرين:

أ- علَّة منهجيّة وهي: إنّ هذه السور تمتاز بوحدة الموضوع، وهو ما ينسجم مع إحدى المتطلبات المنهجيّة التي كانت عائشة ترى أنَّ الدراسة البيانيّة تقوم عليها.

ب- علّة علميّة وهي: إنّ هذه السور تعنى بأصول الدعوة الإسلامية.

وجاءت هذه السّور موزعة على الجزأين على النّحو الآتي:

(الجزء الأول): وفيه سورة الضحى، والشرح، والزلزلة، والعاديات، والنازعات، والبلد، والتكاثر.

(الجزء الثاني): فيه سورة العلق، والقلم، والعصر، والليل، والفجر، والهمزة، والماعون.

ولا نجد بيانا من بنت الشاطئ لهذا التقسيم والتصنيف والتوزيع والترتيب لسور القرآن المخالف لترتيب المصحف؟! ... والمخالف لترتيب النزول[2]؟! ... كما لا نجد هناك بيانا لعلّة اختيار هذه السور المكيّة دون غيرها من سور المفصل الأخرى؟!

ب- منهج التّفسير البياني عند عائشة بنت الشاطئ: أوضحت الدكتورة منهجها في التفسير في (الجزء الأول) من كتابها بقولها: "والمنهج قد شرحه أستاذنا الإمام: «أمين الخولي» في كتابه الجليل «مناهج تجديد»"[3]، ثم شرعت في توضيح مرتكزات هذا المنهج، وبينت أنّه يقوم على مجموعة من الضوابط، لخصتها في أربعة أمور كبرى، تعود إلى أسس قراءة النص؛ ألا وهي:

---

[1]) عائشة بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، دار المعارف-مصر، ط7، دت (ج1،ص18).

[2]) لأنا نجد أن المفسرين قد سلكوا في **ترتيب السور القرآن في التفسير** سبيلين اثنين: **السبيل الأول** سار عليه غالبية المفسرين، وهي الطريقة المعلومة من بداية التفسير إلى اليوم، وهي ترتيب تفسير سور القرآن بحسب ترتيبها في المصحف بدء بالفاتحة وانتهاء بالناس، **والسبيل الثاني**: وهي طريق محدث يعتمد على ترتيب السور في التفسير بحسب ترتيب نزولها.

[3]) عائشة بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم** (ج1،ص10). وتعني به كتاب أستاذها وزوجها: أمين الخولي «**مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب**» الذي حاول فيه أن يؤسس منهج جديد في تناول العربية وشرح

- في أصل المنهج،
- في فهم ما حول النص،
- في فهم دلالات الألفاظ،
- في فهم أسرار التعبير. وهذه الأمور الأربع يمكن أن نختزلها في محورين اثنين، يمثلان منهجها؛ هما:

1- الإطار العام للمنهج. **2- أدوات إجرائية في التّفسير.**

ونحاول أن نتلمس الأمثلة والنماذج لهذين المحورين من كتابها (التّفسير البياني للقرآن الكريم).

1- الإطار العام للمنهج: أوضحته بقولها: "الأصل في المنهج، التّناول الموضوعي لما يراد فهمه من كتاب الإسلام، ويبدأ بجمع كل ما في الكتاب المحكم من سور وآيات في الموضوع المدروس"[1]. وهذا المنهج، عرف: بالتفسير الموضوعي، وتعريفه على ما ذكرته الدكتورة من: «أنه جمع الآيات والسور في الموضوع الواحد لتفسيرها وفق نظرة لا تهمل منها شيئا».

ذهب فهد الرومي إلى أنَّ هذا التّناول لا يصلح أن نطلق عليه لفظة (منهج) استقلالا، فنقول فيه: منهج موضوعي، وإنما هو أسلوب من أساليب التّفسير، حاله كحال التّحليل والمقارنة والإجمال، بدليل أنّ هذه الأساليب تدخل في جميع المناهج؛ كمنهج أهل السنة وغيره، وتدخل في كل الاتجاهات؛ كالاتجاه العقدي والاتجاه الفقهي والاتجاه اللغوي وغيرهم[2].

فالمنهج المتبع من بنت الشاطئ على هذا الرأي إنما هو: المنهج البياني بأسلوب موضوعي استُعمل أداةً، هذا على الاعتبار أنَّ المنهجَ هو: القضايا العلمية المتحكمة في صياغة الكتاب وترتيبه وتحريره، وهو

نصوصها وتفسيرها وفي مقدمتها: القرآن الكريم، وأشفعه بكتاب آخر فيما بعد، عنونه:«**فن القول**»، عرف هذا المنهج باسم المنهج الموضوعي.

[1]) عائشة بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم** (ج1،ص10).

[2]) ينظر: **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط3، 1997م (ج3، ص861...866).

معنى الاتجاه[1]. ومن هنا جاءت تسمية هذا النوع (بالتَّفسير البياني) لا (بالتَّفسير الموضوعي) لأن القضايا العلمية المتحكمة في صياغة التفسير قضايا بيانية وبلاغية، قد يُسمى أيضا بالمنهج البياني أو الاتجاه البياني.

إذا، فلا يعدو أن تكون عائشة عبد الرحمن قد وظفت هنا التّفسير الموضوعي أداة تحاول بها أن تنقل تفسير القرآن "إلى مجال دراسات العربية التي قصرناها على دواوين الشعر ونثر مشهورى الكتَّاب. وكان المنهج المتبع في درس التفسير –إلى نحو ربع قرن من الزمان– تقليديا أثريا، لا يتجاوز فهم النّص القرآني على نحو ما كان يفعل المفسرون من قديم. حتى جاء شيخنا الإمام «الأستاذ أمين الخولي» فخرج به عن ذلك النَّمط التّقليدي، وتناوله نصا لغويا بيانيا على منهج أصله، وتلقاه عنه تلامذته وأنا منهم. ولكن التَّفسير الأدبي للقرآن ظلَّ حتى اليوم، محصوراً في نطاق مادة «التَّفسير» دون أن ينتقل إلى مجال الدَّرس البياني مع تراث الفصحى، وهيهات أن يرقى إليه نص منها"[2].

فرأت بنت الشاطئ أنَّ في التناول القديم؛ وتعني به التَّفسيرَ التَّجزيئيَ التَّحليليَ أداةٌ لا تناسب التّناول اللّغوي والبياني للقرآن الكريم، لأنَّ ذلك النَّوع يتم فيه "تفسير القرآن سورة سورة، يؤخذ اللفظ أو الآية

---

[1]) يظهر من كلام كثير من الدارسين والباحثين أنهم لا يفرقون بين كلمة **المنهج والاتجاه** على أنهما الطريقة التي يسلكها المفسر في تفسيره لكلام الله والكشف عن مراده، ينظر: مصطفي مسلم، **مناهج المفسرين:القسم الأول**، دار المسلم–الرياض، ط1، 1415هـ، (ص15).وينظر أيضا: عبد المجيد عبد السلام المحتسب، **اتجاهات التّفسير في العصر الرّاهن**، مكتبة النهضة–عمان، ط3، 1982. وذهب بعضهم إلى التفريق بين **المنهج والطريقة والاتجاه**، فجعل المنهج خاصا بالوصف العلمي للتفسير؛ أي هو كيفية استخدام المعلومات والمعارف ونمطية تحريرها وترتيبها، أما الطريقة خاصة بالوصف الشكلي للكتاب، أما الاتجاه فهو القضايا العلمية التي لها أثر علمي بارز وحضور قوي في صياغة التفسير [**تسجيل صوتي** للدكتور مساعد الطيار بعنوان: **مناهج واتجاهات المفسرين**، الشريط الأول] ، والخلاف في هذا الأمر لا يعدو أن يكون خلافا اصطلاحيا، لأنه عند البحث لابد من اجتماع هذه الأمور جميعا عمليا سواء بمصطلح واحد أو تحت مصطلحات متعددة، فعند البحث يحاول الباحث الكشف عن كل ما من شأنه أن يبين الوصف العلمي أو الوصف الشكلي للكتاب، وكذا الخصوصية التي امتاز بها هذا الكاتب عن غيره، أو اشترك فيها معهم.

[2]) عائشة بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم** (ج1،ص13).

فيه، مُقتطَعاً من سياقه العام في القرآن كلِّه، مما لا سبيل معه إلى الاهتداء إلى الدّلالة القرآنية لألفاظه، أو لمح ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية"[1]. أما بالنسبة للتَّفسير الموضوعي فإنَّه على العكس من ذلك، فإنه يفيد الدِّراسة البيانية بأن يهيئ لفهمها وتتبعها السّياق اللائق بها، الذي يضعها في مساق فهمها، وهو ما نلمسه جليا في العناصر الأخرى التي أشارت فيها إلى ضوابط منهجها؛ من تَتَبُعٍ استقْرائيٍ للوصول إلى دلالة اللّفظ في الاستعمال القرآني، والاحتكام إلى السياق القرآني في فقه أساليب بيانية، كما تقول[2]، وهاتان ركيزتان وفرت للتَّفسير البياني دعامتين مهمتين، هما:

– الدعامة الداخلية: وهي النَّظر في كامل القرآن الكريم من أجل تفسير لفظ منه أو فهم أسلوب من أساليبه، للخروج من ذلك بفهم كليٍّ لذلك اللَّفظ أو الأسلوب، والاستدلال بالقرآن على توضيح القرآن، فهو من قبيل تفسير القرآن بالقرآن، لكن يفارقه في كون التَّفسير الموضوعي يحاول الوصول إلى فهم كلي للظاهرة اللّغوية في القرآن، ولهذا يُكْثِر مِنَ النّظر في عادات القرآن، **وبنت الشاطئ غلب استثمارها لهذه الدعامة في جانب اللفظ وتتبع دلالاته في القرآن**، على ما سنعرفه لاحقا.

– الدعامة الخارجية: وهي النّظر إلى موضوع ما في علاقته بالمواضيع الأخرى، أو النظر في الأحوال المحيطة بالقرآن مما يتصل بالبيئة المعنوية والمادية التي نزل فيها.

وهذه من النقاط المنهجية الإجرائية التي قدمت للتّفسير البياني نوعا من الإحكام المنهجي في التحليل والكشف عن الأسرار البيانية للقرآن الكريم، هو السبب في وجود "التّفاوت في طبيعة المعالجة عند بنت الشاطئ، فهي ترتفع بقراءتها في بعض الأحيان لتَكُونَ من خِيرَةِ الجهود في التّفسير في العصر الحديث، من مثل تأملاتها في سورة العلق وقدرتها على التموضع في لحظة المتلقي الأول للقرآن الكريم، **ناهيك عن صبرها الجميل في تتبع دلالات الألفاظ في سياقاتها المختلفة**، والتّمييز بين الاستخدام المعجمي للألفاظ واستخدامها في السّياق القرآني، مع ما يرافق هذه اللّحظات الذّكية من مشاعر الزهو والاعتداد الملحوظ بالذات، والغمز من جهود المفسرين القدامى، ... حتّى إذا استنفدت هذه القوة النّقدية عادت

[1]) المصدر نفسه (ج1،ص17، 18).

[2]) ينظر: المصدر نفسه (ج1،ص11).

إلى تراث القدماء في التّفسير، وتقديم آراء لا تعدو كونها اختيارا لوجه ما من وجوه التّفسير الموروثة"[1]، فهي عند التزامها بالتّفسير الموضوعي وتطبيق قواعده ترتفع بتفسيرها لتكشف لنا عن وجوه معنوية بديعية، لكن ذلك كان مقصورا على جانب الألفاظ، وعند ابتعادها قليلا عن قواعد الدّراسة الموضوعية فإنها لا تعدو كونها ناقلة عن غيرها، متوخية الطّريقة التّحليلية في التّفسير، مع تميُّز في دراسة المفردات.

2- أدوات إجرائية في التّفسير البياني: هذا عن الإطار العام للمنهج الذي سارت عليه بنت الشاطئ، أما عن الأدوات الإجرائية، فإنها ذكرت بعضا منها عند ذكرها لتبنيها التفسير الموضوعي، وأوضحت ذلك الأمر في ثلاثة نقاط[2]، هي:

1- في فهم ما حول النّص.

2- في فهم دلالات الألفاظ.

3- في فهم أسرار التّعبير.

وهنا نتساءل فنقول: وكيف سارت بنت الشاطئ في كل نقطة من هذه النقاط متوخية في ذلك إبراز الجانب البياني للقرآن الكريم؟! وهذا يوجب علينا أن نتتبع سلوكها مع هذه الإجراءات في تفسيرها:

2-1- في فهم ما حول النص: ويظهر من تتبع ما كتبته أنها ارتكزت في تحقيق فهم ما يدور حول السورة التي تحاول تفسيرها بيانا على أمرين[3]:

أ- ربط السورة -محل الدراسة- بما نزل قبلها وما نزل بعدها.

ب- الاستئناس بأسباب النّزول.

---

[1]) عمر حسن القيام، **أدبية النص القرآني بحث في نظرية التفسير**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2011 (ص71).

[2]) ينظر: عائشة بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم** (ج1،ص10، 11).

[3]) ينظر: المصدر نفسه (ج1،ص10).

كل هذا -كما ذكرت- من أجل استحضار "ظروف الزمان والمكان"[1] حتى يتهيأ الجو الذي يمكن معه التنبؤ بالمعاني البيانية التي تحملها الآيات القرآنية، وهو ما نلمسه في ربطها مثلا بين أسباب النّزول والمعنى البياني للقسم في سورة الضحى، حيث قالت: "والذي اطمأننت إليه بعد طول تدبر وتأمل في السورة المستهلة بالواو هو: أن القسم بها يمكن أن يكون، والله أعلم، قد خرج عن أصل الوضع اللغوي في القسم العظيم، إلى معنى بياني، على نحو ما تخرج أساليب الأمر ... لملحظ بلاغي"[2]، ثم اعتمدت على ما كان لها من أسباب النزول في تلمس هذا الملحظ البلاغي، فكان أن توصلت إلى أن المذكور إنما هي "صورة مادية مدركة وواقع مشهود توطئة بيانية لصورة معنوية مماثلة غير مشهودة ولا مدركة"[3]. وتفسير دلالة هذه الصّورة المادية -حسب عائشة- هو: إنّنا نشهد "كل يوم تألق الضوء في ضحوة النّهار، ثم فتور الليل إذا سجا وسكن، دون أن يختل نظام الكون أو يكون في توارد الحالين عليه ما يبعث على إنكار، بل دون أن يخطر على بال أحد أن السَّماء قد تخلت عن الأرض وأسلمتها إلى الظلمة والوحشة ... فأي عجب في أن يجيء بعد أنس الوحي ... فترة سكون يفتر فيها الوحي، على نحو ما نشهد من الليل الساجي يوافي بعد الضحى المتألق"[4]. هكذا تربط عائشة بين الصورة المادية المقسم بها بالواو وبين الصورة المعنوية المطلوب فهمها، والتي لا يتم إدراكها إلا باستحضار سبب النّزول، وتأمله وملاحظة العلاقات التي بينه وبين الصورة المادية المقسم بها.

على هذا النحو كان -أيضا- لأسباب النزول دور في مناقشة بعض الآراء التي ذهب إليها بعض المفسرين سلبا أو وإيجابا، أي بقبولها أو ردّها، وهذا غالب حالها[5].

---

[1]) المصدر نفسه (ج1،ص10).

[2]) المصدر نفسه (ج1،ص25).

[3]) المصدر نفسه (ج1،ص25).

[4]) المصدر نفسه (ج1،ص26).

[5]) ينظر على سبيل المثال: المصدر نفسه (ج1،ص197) بداية تفسير التكاثر.

على أن أسباب النزول عندها لا تعدو أن تكون"قرائن لابست نزول الآية، ... وأنَّ السبب فيها ليس بمعنى الحكمية أو العلية التي لولاها ما نزلت الآية" بل "ربطها كل منهم بما فهم أو بما توهم أنه السبب في نزولها"[1]، هذا ما جعلها تنظر إلى أنّ "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"[2].

وهكذا بالنسبة إلى الأخذ بالنظر فيما نزل قبل السورة وما نزل بعدها، فإنها كثيرا ما كانت تستند إليه في أن يكون أحد العوامل الموجهة للمعنى قبولا أو رفضا، كما ذهبت إلى استبعاد أن تكون الضحى المقسم بها هنا في هذه السورة (سورة الضحى)، هي (الضحى) المذكورة في (سورة طه) في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه:٥٩]، التّي كانت موعدا لموسى عليه السلام لمعارضة السحرة، لكون (سورة الضحى) نزلت قبل (سورة طه) بزمن؛ بنحو ست وثلاثين سورة[3].

2- في فهم دلالات الألفاظ: وهذا الإجراء بذلت فيه بنت الشاطئ جهدا يستحق التقدير والتأمل، حتى إنه ليمكن أن يقال: إن التّميز والتّفرد في منهج بنت الشاطئ يرجع إلى تعاملها مع دلالات اللّفظ القرآني.

انطلقت في هذا الموضوع أولا: من إيمانها العميق بأنّ لدراسة اللفظ أثرا كبيرا، وأهمية بارزة في الدراسة البيانية للقرآن وإعجازه على حد سواء، فـ"لاسبيل إلى دراسة أي نص في لغة ما دون فقه لألفاظه في لغته"[4]، ولهذا السبب كان -تقول عائشة-: "مناط البلاغة في النظم القرآني عند الخطابي: اللّفظ في مكانه إذا أبدل فسد معناه أو ضاع الرّونق الذي يكون منه سقوط البلاغة، وهذا الملحظ الدّقيق هو المحور الذي أدار عليه عبد القاهر مذهبه في الإعجاز بالنّظم، وهو أيضا مما يلتقي -إلى حد ما- مع جوهر فكرتنا في الإعجاز البياني، ثم نختلف بعد ذلك في تحقيق مغزاه ولمح أبعاده وطريق الاحتجاج

[1]) المصدر نفسه (ج1،ص10).
[2]) المصدر نفسه (ج1،ص10).
[3]) ينظر: المصدر نفسه (ج1،ص31).
[4]) ينظر: المصدر نفسه (ج2،ص7، 8).

له"[1]. ومن طرق الاحتجاج التي أشارت إليها بنت الشاطئ، وجعلتها أساسا تتكئ عليه في التأصيل لدراستها:

1- نفيها للترادف بين الكلمات المتقاربة في الدلالة، فبعد أن عرضت الخلاف الحاصل في المسألة بين المتقدمين وحتى المتأخرين، خلصت إلى أن "من الحقّ ألا نأخذ في القضية برأي دون عرضها على الكتاب العربي المبين، لأنه الذي يحسم ذلك الخلاف، وفيما أشتغل به على المدى الطويل من تخصص في الدّراسات القرآنية شهد التتبع الاستقرائي لألفاظ القرآن الكريم في سياقها، أنه يستعمل اللفظ بدلالة معينة لا يؤديها لفظ آخر في المعنى الذي تحشد له المعاجم وكتب التفسير عددا قل أو كثر من الألفاظ"[2]. وقد تناولت في هذا الإطار مجموعة من الألفاظ بينت الفرق الدلالي الموجود بينها، وهذا الجهد فَتَحَ لها الباب نحو عدد كثير من المباحث اللفظية البيانية في القرآن الكريم، فنجدها كثيرا ما يدفعها القول بنفي الترادف إلى النظر والتأمل، وإلى الوقوف عند كثير من الآيات وعدم الاكتفاء بما ألف أن يذكر، هذا ما فتح لها الباب للبحث والتحقيق في كثير من المسائل البيانية، ما كانت تطرقها لو لم تتكئ على هذا الأساس(نفي الترادف). كما فتح الباب لها، فتح باب البحث البياني لغيرها من الدراسات البيانية التي جاءت بعدها[3].

---

[1]) عائشة بنت الشاطئ، **الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق**، دار المعارف-مصر، ط3، دت (ص101).

[2]) المرجع نفسه (ص214، 215).

[3]) ينظر: في هذا السياق في "**من أسرار التعبير القرآني -صفاء الكلمة-** لعبد الفتاح لاشين [دار المريخ للنشر-الرياض، ط1983م]، فقد تناول فيه جملة من المباحث البيانية قائمة في أساسها على القول بعدم الترادف، من مثل: اختيار اللفظ دون مرادفه، اختيار لفظ في غرض، وفي الغرض نفسه يختار لفظ آخر، ألفاظ حسنت في القرآن لم تحسن في غيره، تخير لفظ دون مجانسه، لا تناقض بين لفظين، لا يستغنى بأحد اللفظين عن الآخر. وكل هذه المباحث ترجع في أصلها إلى نفي الترادف. [وينظر: أيضا في رسالة: **دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني**، لمحمد ياس خضر الدوري]، فإن مبناها على نفي الترادف. وتتبع الفروق اللغوية بين الكلمات في عدد من المباحث: كعطف المترادفات، وتوكيد اللفظ بمرادفه، وإضافة المترادفين، [وهي رسالة دكتوراه بجامعة بغداد، بإشراف: أ.د.خليل بنيان الحسون، 2005]. وأيضا :كثير من المباحث البيانية عند فاضل صالح السامرائي قائمة على نفي الترادف، ينظر مثلا: بلاغة الكلمة، والتعبير القرآني.

2- سلكت في ذلك مسلكا موضوعيا في دراسة المفردة القرآنية، يمكن تلخيصه في أربع مستويات:

- المستوى الأول: استقراء اللفظ القرآني من مواضع وروده في القرآن الكريم كلها.
- المستوى الثاني: استقراء دلالته في المعاجم العربية، والتركيز على الأصل الدلالي أو ما يسمى بالاشتقاقي.
- المستوى الثالث: البحث عن الدلالة المرادة مع اعتبار السياقات المختلفة لمواضع وروده والخصوصيات البنائية لذلك اللفظ في الموضع المخصوص.

المستوى الرابع: استنباط الخصوصية الدلالية التي قد يضفيها القرآن على تلك اللفظة.

ومن الأمثلة التي يمكن أن نشير إليها مستدلين على أن منهجها في أن تحليلها البياني للمفردة القرآنية كان يسير في ضوء هذه المستويات، ما ذكرته في تفسير(سورة العاديات) وهو قولها: "ولفظ "العاديات" **لم يرد في القرآن** بهذه الصيغة إلا هنا، **والأصل اللغوي للعدو** هو البعد والتجاوز، ومنه العدوة للمكان المتباعد، والعدو الوثب. **واستعمال العدو في الجري الشديد، ملحوظ** فيه البعد والوثب وتجاوز المألوف من الجري، كما أن استعماله في العداوة، ملحوظ فيه التباعد والجفاء، واستعماله في العدوان والبغي، ملحوظ فيه تجاوز الحق كذلك. وقد يقال للفرسان عادية، **لكن الضبح يعين أن المقصود بها هنا الخيل لا الفرسان**، لما أشرنا إليه من اختصاص الخيل بالضبح، وهو صوت أنفاسها حين تعدو سريعاً"[1].

فنلحظ في هذه القطعة القصيرة، نجدها تشير إلى جملة من المستويات التّحيليلة للمفردة القرآنية، فأشارت رحمها الله إلى:

- استقرائها في القرآن الكريم. بقولها: لم ترد في القرآن بهذه الصيغة إلا هنا.
- بيان الأصل الدلالي اللغوي. بقولها: والأصل اللغوي للعدو هو البعد والتجاوز.
- ربطها بالسياق. بقولها: واستعمال العدو في الجري الشديد، ملحوظ فيه...

[1]) عائشة بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم** (ج1، ص106).

وقولها: لكن الضبح يعين أن المقصود بها هنا الخيل لا الفرسان...

فوجدنا هنا إشارتها إلى ثلاثة مستويات من المستويات السابقة، ثم تذكر كلاما آخر وتواصل قائلة:"وعطف الموريات قدحاً على العاديات ضبحاً، بالفاء وفيها ملحظ السببية، **لأن الإيراء:** أثر للعدو الشديد ينقدح به الشرر من حوافر الخيل. **ولم ترد مادة قدح في القرآن إلا في هذه الآية،** فعلاً مضارعاً، على أصل معناه في إيراء النار، بآية الواقعة:﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾[الواقعة:٧١] وبآية الواقعة هذه، استشهد الذين قالوا إن العاديات هي إبل الحاج، ففسروا الموريات بأنها جماعات الحجيج إذ يوقدون نيرانهم ليلة المزدلفة، وهو ما وصفه "إبن القيم" بالتأول على وجه بعيد، وقال فيه: "وهذا خلاف الظاهر، وإنما الموريات هي العاديات". والعطف بالفاء، فيه مع ملحظ من السببية، ترتيب دون تراخ أو تمهل وإبطاء، ما بين عدوها ضبحاً وإغارتها صبحاً.

ويلحظ هنا أن العربية تخص الإغارة بالخيل، ولو لم يذكر لفظ الخيل فتقول: أغار على القوم دفع عليهم الخيل، وأغار الفرس: أشتد عدوه في الغارة. **فاستعمال المغيرات للخيل هنا، يتأيد بمألوف الحس اللغوي لهذا اللفظ** تخص به الخيل"[1].

هكذا، بعد أن تحدث عن بعض المستويات في اللفظة الأولى (العاديات) انتقلت إلى الحديث عن مستويات أخرى في لفظة ثانية وهي (فالموريات) ثم اللفظة الثالثة (المغيرات) على وفق ما هو وارد في هذا النص المنقول، كل هذا محاولة بذلك الوصول إلى **المستوى الرابع في تحديد دلالات المفردة** القرآنية ألا وهو: **استنباط الخصوصية الدلالية التي أضفاها السياق القرآني على تلك الألفاظ،** وقد خلصت في هذه الألفاظ إلى أن الخيط الدلالي الرابط بينها يتمثل في أنها جميعا ملائمة " لجو الموقف الذي تسيطر عليه الأخذة المباغتة، والسرعة الخاطفة، فمراحل الإغارة تتم جميعاً في تدافع سريع لا تراخى فيه، وتتعاقب واحدة في إثر أخرى في حسم قاطع..." [2].

[1]) المصدر نفسه (ج1، ص107).

[2]) المصدر نفسه (ج1، ص108، 109).

هذا ما سمح لها بعد ذلك باستنتاج وجه الربط بين هذه الدلالة التي صنعتها هذه الألفاظ، مع الدلالة التي تصنعها ألفاظ السورة في الجزء الثاني منها وهي قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾[العاديات:٩-١١]، ووجه الربط بينهما أن "هذه الوقفة الحاسمة، يبلغ بها القرآن ذروة المشهد العنيف لبعثرة ما في القبور وتحصيل ما في الصدور، تتسق مع مشهد الإغارة العنيفة في مستهل السورة، على وجه باهر من البيان المعجز"[1].

هكذا فقد انطلقت بنت الشاطئ من قراءة دلالات المفردات القرآنية استقراء وتأصيلا واستنباطا على وفق المستويات السابقة التي أشرنا إليها لتخلص في الأخير إلى استخلاص الوجه البياني الحادث من التكاثف والتكاتف الدلالي بين دلالات المفردات القرآنية، على أنه ينبغي أن ننبه إلى أنها قد تتسمح فتكتفي بإبراز بعض المستويات الدلالية للمفردة دون المستويات الأخرى، على حسب ما يستدعيه المقام، وهذا غالب أمرها مع الكلمات التي تناولتها.

وهذه المستويات في تناول المفردة القرآنية -كما نلحظ- تجمع بين نظرتين: نظرة شمولية ونظرة استنباطية، فالنظرة الشمولية نتلمسها في المستوى الأول والمستوى الثاني، والنظرة الاستنباطية تتجلى في المستوى الثالث والرابع، وهي التي شكلت العملية التفسيرية عندها.

وقد تشفَّعُ المستويات السابقة أحيانا بمستوى هو ألصق بالدراسة البيانية؛ ألا وهو تلمس **الدلالة الإيحائية للفظ القرآني**، وهذا كما في قولها عند قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر:٢]:"استعمال الزيارة بهذا المعنى، صريح الإيحاء بأنَّ الإقامة في القبر ليست إقامة دائمة، وإنما نحن فيها زائرون، والزائر غير مقيم، وسوف تنتهي الزيارة حتماً إلى بعث وحساب وجزاء. وهذا الإيحاء ينفرد به لفظ ﴿زُرْتُمُ﴾ دون غيره، فلا يمكن أن يؤديه لفظ آخر، كأن يقال: صرتم، أو رجعتم أو انتهيتم، أو أُبْتم وأُلْتم، وليس القبر المصير والمرجع والمآب والمآل. كما لا يقال: سكنتم في المقابر،

[1]) المصدر نفسه (ج1، ص119).

أوأقمتم بها، إلى غير ذلك من ألفاظ تشرك كلها في الدلالة على ضجعة القبر، ولكن يعوزها سر التعبير الدال على أنها زيارة، أي إقامة مؤقتة، يعقبها بعث ونشور"[1].

غير أن اِسْتِيحَاء هذه الدلالة لا يحسنها كلُّ أحد، وإنما يحسنها من كان له باع في تذوق الألفاظ وإحاطة بالسياق وملابساته، حتى يعرف الجزء الدلالي من اللفظ الذي به تكون هذه الدلالة الإيحائية، ولهذا نجد بنت الشاطئ تعقب على هذا بقولها:"وليس بعجيب أن يفوت هذا السرِّ البياني مفسرين كان جهدهم أن يجمعوا كل ما يمكن أن تحتمله الدلالات المعجمية لزيارة المقابر، وشتى المرويات في تأويلها"[2]. وعليه فالعملية التفسيرية لا تتوقف عند حشد كل ما يعلم عن اللفظ من معان، وإنما ينبغي تركيز النظر للوصول إلى الجزء الدلالي المقصود من اللفظ أو إلى استشفاف جوانب لا تظهر إلا بالتأمل العميق في اللفظ.

وهكذا أيضا تستعمل هذه الدلالة الإيحائية أحيانا للرد على بعض المفسرين فيما ذهبوا إليه من تقييد الدلالة، كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾[الضحى:٩]، فترى أن "الإيحاء النفسي للكلمة القرآنية ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ أعمق وأدق من أن يضبط بهذه التّفسيرات المحدودة؛ فلا الظلم، ولا التسلط بما يؤذى، ولا منع الحق، ببالغ في التأثير ما يبلغه قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقْهَرْ ﴾. إذ يجوز أن يقع القهر، مع إنصاف اليتم، وإعطائه ماله، وعدم التّسلط عليه بالأذى: لأن حساسيّة اليتم، يمكن أن يتأثر معها اليتيم بالكلمة العابرة، واللفتة الجارحة عن غير قصد، والنبرة المؤلمة بلا تنبه، وإن لم يصحبها تسلط بالأذى أو غلبة على ماله وحقه"[3].ونلحظ هنا أنها اعتمدت على الإيحاء النفسي للكلمة، ولهذا خص النهي عن القهر باليتيم رغم تعلقه بغيره.

---

[1]) المصدر نفسه (ج1،ص200).

[2]) المصدر نفسه (ج1،ص200).

[3]) المصدر نفسه (ج1،ص52). وينظر أيضا ما قالته في قوله تعالى: ﭽ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴿٢﴾ﭼ[الزلزلة:٢] في (ج1، ص85).

كما تستعملها أحيانا أخرى لتضييق الدّلالة التي أطلقها المفسرون، كما حصل ذلك عند قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾[الزلزلة:٦]، فذهبت إلى أنَّ "تفسير﴿ يَصْدُرُ ﴾ بـ: يخرج أو ينصرف، يفوته إيحاء الكلمة في حسِّ العربية التي استعملت الصَّدرَ مقابلا للوِرْدِ، والعرب قد ألفوا استعماله كذلك، وجرت أمثالهم بأنّ الوارد يجب أن يعرف كيف يَصْدُر، وإلا ضاع ... لأنَّ في ربطهما سرَّ الدّلالة الموحية بأنَّ الحياة الدنيا ليست بدار مقام، وإنما هي رحلة نجتازها ولابد من تأمين طريق العودة والصّدر"[1].

على أنّه ينبغي التّنبيه إلى أن الدّلالة الإيحائيّة التي هي من التّفسير البياني، غير الدّلالة الإشاريّة التي لا تقبل فيه، تقول في هذا السياق: "ولا نقف عند تأويلات الإشاريين بأنّ الضحى وجه محمد ﷺ والليل شعره، أو أن الضحى هم ذكور أهل بيته عليه الصلاة والسلام، والليل إناثهم، ... إلى آخر هذه التّأويلات الإشاريّة التي لا موضع لها في تفسير بياني للنّص الكريم"[2]، ولم تبين بنت الشاطئ السّبب الذي جعل هذه الدّلالة لا تدخل في التّفسير البياني، ولعلّ العلّة في ذلك ترجع إلى أن الدّلالة الإيحائيّة مرتبطة بالدلالة المركزية للفظ بدلالة اللّزوم أو التّبعية. أما الدلالة الإشارية فهي ذات رابط شعوري ذاتي لا تفسير له، وغير قابل للقياس ولا الضبط، ولا يخضع لأي قاعدة لغوية، مما يجعل الاستناد إليها فاقدا للخصيصة البيانية المراد الكشف عنها، ولهذا فلا تدخل الدّلالة الإشارية في التّفسير البياني.

3- من طرق الاحتجاج عندها للدّلالة اللّفظة اعتمادها على: **عادة القرآن في الاستعمال وعرفه،** وهذا لا يتوصل إليه إلا بعد استقراء القرآن الكريم والنّظر في أساليب استخدامه للفظ، أو الدّلالة التّي يأتي لها، وهو ما ذكرناه بأنه المستوى الرابع من مستويات دراسة اللّفظ القرآني.

فجعلت عائشة هذا الأمر من المقاييس اللازمة في الحكم أو الترجيح، فهي تستمده من القرآن لتفسِّر به القرآن، وقد تنوع ارتكازها على عادة القرآن في جوانب متعددة، منها:

[1]) المصدر نفسه (ج1،ص93).
[2]) المصدر نفسه (ج1،ص32).

1- في بيان دلالة اللفظ: وكثيرا ما كانت تلجأ عائشة بنت الشاطئ إلى عرف القرآن في تحديد دلالة اللفظ، والأمثلة في هذا الشأن كثيرة جدا، لأنها كانت تستند في دراسة اللّفظة القرآنيّة إلى القرآن نفسه، من ذلك: حديثها عن معنى الآخرة ، فذهبت إلى أنها "إذا اقترنت الآخرة بالدّار أو اليوم غلب أنها اليوم الآخر، أما إذا أطلقت فهي ذات دلالة أعم يدخل فيها: النهاية، والمصير، والعقبى، سواء في هذه الحياة أو فيما بعدها"[1].

2- في بيان الفرق الدلالي بين اللفظين: من اعتمادها على عرف القرآن في التفريق بين دلالة لفظتين، ما ذكرته في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾[الهمزة:١] فمعلوم أن عبارة المفسرين اختلفت في ضبط دلالة هاتين اللفظتين. وعندئذ قالت بنت الشاطئ :"ونحتكم إلى القرآن الكريم فيجلو لنا الفرق بين اللفظين في الدلالة، حين يستعمل الهمز لوسوسة الشيطان(المؤمنون آ97)، والنميمة (القلم آ11)، وفيهما الخفاء والغيبة. وأما اللمز فيستعمله مع التنابز بالألقاب (الحجرات آ11)، وفي الاعتراض على تقسيم الصدقات (في التوبة آ58) ولا يكون ذلك إلا مواجهة"[2] ومن هذا الاستعمال القرآني خلصت إلى أننا "نطمئن إلى أن الهمز هو الذي يدأب على تحقير الناس والإيغال في تجريحهم من خلف ظهورهم، واللمز الذي يدأب على مواجهتهم بكلمة السوء تحقيرا لهم وغضا من شأنهم"[3]. وهكذا نجدها تعامل الأمثلة التي تدخل تحت هذا.

3- بيان المقدار المحتاج إليه من البيان: وهذا الأمر مما شاع كثيرا عند بنت الشاطئ، وهو أن تنظر فيما ذكره القرآن ووضحه فهو المطلوب، أما بالنسبة للألفاظ التي أجملها القرآن الكريم فإن البحث في الكشف عن إجمالها لا يترتب عليه أي فائدة في ذلك، "لأن مقتضى البيان أن يستوفي كل ما يدعو إليه

[1]) المصدر نفسه (ج1،ص36).
[2]) المصدر نفسه (ج2،ص169).
[3]) المصدر نفسه (ج2،ص170).

المقام مما يتصل بغايته"[1]، وعلى هذا –مثلا– فـ"لا وجه عندنا لتحديد المقصود بالعطاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى:٥]، بما ذكره الرازي أو غيره، بل نؤثر إطلاقه، مسايرة للبيان القرآني الذي لم يشأ أن يحدده، ... ، وما كان لنا أن نحتكم بأذواقنا ...في تحديد هذا الذي يرضي الرسول، أو نشغل عن تدبر سر البيان في إطلاقه العام وانتهائه إلى الرضى، بمثل ما شغل به كثير من المفسرين..." [2]، فترى هنا بأن اللفظ جاء على إطلاقه فلا ينبغي لنا أن نتدخل في تقييده، احتكاما لعادة القرآن في البيان، فمن عادة القرآن أن يبيِّن كل ما يحتاج إلى بيان.

وذهبت إلى وجوب الاحتكام إلى القرآن في تفسير معنى "الضَلاَل" من قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى:٧]، وأن الاستعمال القرآني لا يلتزم دائما استعمال الضلال بمعنى الكفر، حتى نلجأ إلى تأويلات مَن تصوروا ذلك، تقول:"فالاحتكام إلى القرآن الكريم نفسه، يعفينا من التزام المصطلح في لفظ الضلال بمعنى الكفر، وهو أيضا يعفينا من تلك التأويلات العشرين التي تكلفوها في تفسير الآية لينفوا الكفر عن سيدنا محمد ﷺ قبل أن يبعث"[3]. وهكذا كانت تحاول بنت الشاطئ أن تتكئ على القرآن لتصل إلى الدلالة القرآنية، وأن الكلمة تدل على التيه والحيرة لا على معنى الكفر.

هذا ما نجده عند بنت الشاطئ فيما تعلق بدارسة المفردة القرآنية، وهو كما نلحظ منهج في الدراسة موسع ومتعدد الجوانب، مما جعله يغطي على الجوانب الأخرى، ينفرد بجهدها التفسيري. وما يؤكد هذا أن ننظر في الإجراء الثالث الذي جعلته من إجراءاتها في التفسير، وهو:

– 3– في فهم أسرار التعبير: وهذا العنصر الثالث من العناصر الإجرائية التي استعملتها بنت الشاطئ في تفسيرها البياني: **النظر في أسرار التعبير**؛ والمتبادر للذهن أنَّ التعبير يقصد به التركيب اللغوي للعبارة، لكن عائشة لم تركز على هذا، وإنما ذهبت إلى أنّ معنى هذا أنْ "نحتكم إلى سياق النص في

[1]) المصدر نفسه (ج1،ص36).
[2]) المصدر نفسه (ج1،ص38).
[3]) المصدر نفسه (ج1،ص46).

الكتاب المحكم ملتزمين ما يحتمله نصا وروحا، ونعرض عليه أقوال المفسرين فنقبل منها ما يقبله النص، ونتحاشى ما أقحم على كتب التفسير من مدسوس الإسرائيليات وشوائب الأهواء المذهبية، وبدع التأويل"[1]، ولهذا نجد أنّ اهتمام بنت الشاطئ بالدلالة اللغوية للتركيب جاء بصورة محتشمة، ولم تتعرض لدراسة الظواهر التّركيبية من تقديم أو تأخير أو حذف أو ... إلا قليلا، وجاء تركيزها قويا على دراسة المفردة في سياقها، فظهر عندها الاهتمام بالسياق؛ وهو ما نصت عليه كما ذكرنا في النص الذي مرَّ معك قريبا.

واهتمامها بالسياق كان من خلال التركيز على:

- أسباب النزول، كما مرّ.

- الاحتكام إلى الاستعمال القرآني، والنظر في السياق القرآني العام لذلك المعنى، قد مرَّ كذلك.

- والأمر اللافت الانتباه هنا هو اعتمادها في فهم التّعبير القرآني على مقاصده العامة، "وذلك لأن نصوص الشريعة وأحكامها معلّلة بمصالح ومقاصد وضعت لأجلها، فلا تهمل تلك المقاصد عند فهم النّصوص والاستنباط منها"[2]، وجاء اهتمامها بهذا النوع من السياق من طبيعة الطريقة التي نهجتها في التّفسير، فقد اتّبعت الطّريقة الموضوعية، وهذه تستوجب اعتبار النّظر في المقصد، فكما أن التّحليل البياني يكون في الإطار الموضوعي، فإنّه بالضرورة يستصحب النظر المقاصدي للسورة، أو للقرآن.

ونتلمس استحضارها للسياق المقاصدي من خلال نظرها في مقصد السورة، وهذا كقولها عند توضيحها لدلالة "العصر" بعد أن سردت أقوال المفسرين كعادتها، وكان آخر ما ذكرته قول ابن القيم على أنّ "العصر" الدهر، قالت:"وهو ما نطمئن إليه ... مستأنسين بسياق الآية، إذ اللافت إلى ما

---

[1]) المصدر نفسه (ج1،ص11).

[2]) عبد المجيد محمد السوسوة، **الأسس العامة لفهم النص الشرعي–دراسة أصولية–** مقال: في مجلة "**التجديد**" تصدر عن الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ع6، 1999 (ص71).

يعتصر الزمن من خلاصة الإنسان... فيكشف عن خيره وشره"[1]. فقد استأنست بسياق الآية؛ أي بالمقصد منها.

خلصت في خاتمة هذه السورة إلى أنّها قد حددت للإنسان مسؤوليته الاجتماعية، و"أنه لا يكفي لنجاته من الخسر أن يؤمن بخالقه ويعمل صالحا دون أن يقضي حق الجماعة ... ومن هنا كانت عناية القرآن الكريم بتقرير المسؤولية الاجتماعية أصلا من أصول الدين"[2]، وحسب بنت الشاطئ قد جاء تفسير هذه المسؤولية في آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل وعليهما عُلِّقَ مناط خيريّة هذه الأمة[3].

وفي آخر هذه النّقاط التي تبين في الجملة المنهج الذي كانت بنت الشاطئ ترجع إليه في دراستها وتفسيرها البياني، ينبغي أن ننبه إلى أمر مهم يتعلق بمنهج هذه الباحثة من الجهة السلبية. ولهذا كثر انتقادها عليه، ألا وهو: الاعتداد الزائد بآرائها مما جعلها في كثير من الأحيان تقصر الآية على الرأي الذي ترجحه أو تذهب إليه، وتسفه كلّ ما عداه من الاحتمالات التي قد تحتملها الآية، مما ذهب إليه بعض المفسرين القدماء، يقول بعضهم: "فالمفسر القديم يفهم أنّ النّص الذي يقبل التّأويلَ طائفةٌ من الإمكانيات، وقد يرجح بعضها مستعينا في ذلك بالسياق العام للنص، ولكنه لم يكن يجزم بمعنى واحد يخطِّئ ما سواه كما فعلت المؤلفة، ثقة منه بأن التفسيرات الجيدة التي تحاول باستمرار أن تطلعنا على إمكانيات أوفر في النص القرآني"[4]. لكن بنت الشاطئ بآرائها تلك كانت تجنح بالتفسير البياني نحو تضيق الدلالة وهذا أمر يتعارض والدراسة البيانية.

---

[1]) عائشة بنت الشاطئ، التفسير البياني للقرآن الكريم (ج2، ص77).

[2]) المصدر نفسه (ج2، ص92، 93).

[3]) ينظر: المصدر نفسه (ج2، ص93).

[4]) قاله عفت الشرقاوي في **الفكر الديني في مواجهة العصر**(ص341)، نقلا عن: عمر حسن القيَّام، **أدبية النص القرآني بحث في نظرية التفسير**(ص72).

وبعد بيان أبرز المعالم التي قام عليها التّفسير البياني عند بنت الشاطئ، يظهر لنا جليا أنّ التّفسير البياني عند بنت الشاطئ كان يرتكز في مجمله على دراسة المفردة القرآنية وبذل الوسع في تحديد دلالتها، باستغلال كل الامكانات التّي توصل إلى هذا المطلوب. ويصل بها الأمر أحيانا في بعض السور إلى أن لا تخرج عن بيان أسرار المفردة كما حصل لها ذلك في (سورة العاديات) مثلا.

3- نتائج البحث وملاحظاته: وفي خاتمة هذه الأوراق نذكر بعض الخلاصات العامة التي تشير في الجملة إلى الأفكار الواردة هنا، ومنها:

أ • التفسير البياني عند بنت الشاطئ هو تناول القرآن الكريم تناولا لغويا مركزا فيه على بيان دلالات المفردات القرآنية والكشف عن أسرارها، ولا تخرج عن ذلك إلا بالقدر الذي يخدم طريقة استخراج دلالات المفردات.

ب• دراستها البيانية للمفردة القرآنية كانت دراسة شاملة ومتكاملة، يمكن تلخيصها في خمسة مستويات، هي:

- المستوى الأول: استقراء اللفظ القرآني من مواضع وروده في القرآن الكريم كلها.
- المستوى الثاني: استقراء دلالته في المعاجم العربية، والتركيز على الأصل الدلالي أو ما يسمى بالاشتقاقي.
- المستوى الثالث: البحث عن الدلالة المرادة مع اعتبار السياقات المختلفة لمواضع وروده في القرآن الكريم والخصوصيات البنائية لذلك اللفظ في الموضع المخصوص.
- المستوى الرابع: استنباط الخصوصية الدلالية التي أضفاها القرآن على تلك اللفظة.
- المستوى الخامس: التنبيه على ما يمكن أن تدل عليه المفردة من دلالة إيحائية.

وهو منهج في دراسة المفردة القرآنية يستحق التّقدير والتّطبيق، لدقته وبعد غوره، واشتماله على مستويات تتحقق معها النّظرة الشمولية والاستنباطية، وذلك بدراستها من جهة أصلها اللغوي، ثم وضعها في سياقها الاستعمالي في القرآن الكريم وسياقها الموضوعي في السّورة والموضوع، مع استحضار للدّلالة التّي توحي بها.

ج • السور التي فُسّرتها هي سور انتقائية، معظمها كانت من سور المفصل، وهذا يدل على متانة هذا التّفسير وصعوبته وكثافته، واحتياج السّور الطوال إلى نفس طويل من جهة استحضار لعوامل متعددة من أبرزها: السياق والموضوع، ولهذا قال أحد الدراسين عن التفسير البياني إنه "فوق طاقة الأفراد"[1] واقترح أن "ينهض به عمل جماعي منظم تتولى أمره مؤسسة لها أطرها وأدواتها وخطة عملها"[2]. وَلاَ جَرَمَ، فإنه خطوة من خطوات بيان جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم، ولهذا فتناول الجهود التي قدمت في الجانب مهمٌّ جدا، لأنها ترسم لنا بعض الخطوط المنهجية لهذا اللّون من التّفسير، فعلينا أن نستثمر جميع الجهود السابقة في هذا المجال، فإن كلَّ جهد منها قد ركز على جانب من جوانب هذا اللَّون من التفسير.

د • تأثر التفسير البياني عند بنت الشاطئ –وإن اقتصر على دراسة المفردات– بالمنهج الأدبي الذي كان ينادي به أمين الخولي من الاعتماد على المنحى الموضوعي، ولهذا كانت تسعى إلى إبراز أهمية هذا المنهج وفاعليته.

و • رغم هذا الجهد المعتبر في دراسة المفردة القرآنية إلا أن عملها لم يسلم من بعض التعقب المنهجي من جانبين:

1– الاعتداد الزائد بالرأي، وإسقاط ما عداه، بما يؤدي إلى إزهاق الثراء المعنوي للنص القرآني، والتنقص من آراء السابقين.

2– القصور البين في التحكم في الدراسة الموضوعية، مما جعل تفسيرها البياني ينحو منحى التفسير اللغوي التحليلي، بتتبع مفردات الآية أو السّورة.

هذا، والحمد لله أولا وآخرا، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

1) الحسين زروق، جهود الأمة في الإعجاز البياني للقرآن الكريم، دار السلام–مصر، ط1، 2013 (ص177).

2) المرجع نفسه (ص177).

المصادر والمراجع:

- أحمد شيخ عبد السلام، **نحو منهج لغوي مقصدي في التعامل مع نصوص الوحي**، مقال منشور في مجلة **التجديد** تصدر عن الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا العدد: 05، 1999.
- الحسين زروق، **جهود الأمة في الإعجاز البياني للقرآن الكريم–المسار والمآل والمكتبة–**، دار السلام–مصر، ط1، 2013.
- عائشة بنت الشاطئ، **الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق**، دار المعارف–مصر، ط3، دت
- عائشة بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، دار المعارف–مصر، ط7، دت.
- عبد الجليل هنوش، **البلاغة والتفسير مقدمة منهجية** : مقال منشور ضمن: كتاب"**بلاغة النص القرآني**" بحوث الندوة التي نظمها مركز الدراسات القرآنية بالرابطة المحمدية للعلماء بالمحمدية بالمغرب، ط1، 1435هـ.
- عبد الفتاح لاشين، **من أسرار التعبير القرآني –صفاء الكلمة–** ، دار المريخ للنشر–الرياض، ط1983م.
- عبد المجيد عبد السلام المحتسب، **اتجاهات التفسير في العصر الرّاهن**، مكتبة النهضة–عمان، ط3، 1982.
- عبد المجيد محمد السوسوة، **الأسس العامة لفهم النص الشرعي–دراسة أصولية–** مقال: في مجلة "التجديد" تصدر عن الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ع6، 1999.
- عمر حسن القيام، **أدبية النص القرآني بحث في نظرية التفسير**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 2011
- فهد الرومي، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، مؤسسة الرسالة–بيروت، ط3، 1997م.

- محمد ياس خضر الدوري، **دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني**، وهي رسالة دكتوراه بجامعة بغداد، بإشراف: أ.د.خليل بنيان الحسون، 2005.
- مساعد الطيار، تسجيل صوتي بعنوان: **مناهج واتجاهات المفسرين**، الشريط الأول.
- مصطفي مسلم، **مناهج المفسرين:القسم الأول**، دار المسلم-الرياض، ط1، 1415هـ.